

عراقي أبواب مملكته السوداء لا تزال مفتوحة

محمد خضير

الذاهب بخياله إلى كتابة جديدة



حين يكتب عن الرسامين. لقد مارس هوايته في أن يكون رساما من خلال انتحاله صفة ناقد انطباعي حاول من خلال اللغة أن يوقع بالرسامين باعتبارهم كائنات تسرح في مجازات خياله المفتوحة على ما لم يرسم.

الكاتب الذي يعاد اكتشافه

ولد خضير عام 1942 في البصرة جنوب العراق. تخرج من دار المعلمين ومارس مهنة التعليم غير ما يزيد على الثلاثين سنة في الناصرية والديوانية والبصرة. ويعود ظهوره الأدبي إلى عام 1962، غير أن عزوفه عن النشر جعل من صدور أول كتبه القصصية "المملكة السوداء" عام 1972 مناسبة لإعادة اكتشافه. وهو اكتشاف لم يغير من عادات خضير الذي عاد إلى عزلته بعيدا عن الأضواء.

بعد سنوات قليلة أصدر خضير كتابه الثاني "في درجة 45 مئوية". وسيمر زمن طويل حتى يستأنف نشر نتاجه الأدبي. وكما يبدو فإن خضير لم يكن يولي النشر اهتماما يعكس علاقته بالكتابة التي كانت بالنسبة إليه سلم نجاة. وهو ما جعلني أتوقع أنه يمارس الكتابة يوميا باعتباره محترفا. خضير يثق بالكتابة أكثر من أي شيء آخر. ذلك ما سيكتشف عنه في كتبه المجاورة لكتبه القصصية. تلك كتب هي مزيج من سيرته الأدبية وسيرة مدينته وطريقته في النظر إلى الكتابة. أصدر بعد ذلك "رؤيا الخريف"، "تحنيط"، "حدائق الوجوه"، "بصريانا"، "كراسة كانون"، و"الحكاية الجديدة" وهناك كتب أخرى يؤكد صدورها أنه كان دائما غزير الكتابة. وفي عام 2004 نال جائزة سلطان عويس.

كانت واحدة من أعظم خسارات الأدب العربي أن نتاج خضير الأدبي لم ينتشر عربيا إلا في السنوات الأخيرة وفي حدود ضيقة. كان من شأن ذلك النتاج لو انتشر أن يغير أساليب الكتابة وسبل التفكير فيها ومن خلالها.

غير أن التقاط مواقع التحول الذي أحدثه محمد خضير ومن ثم التأثير بها هو في حد ذاته مهمة عسيرة. ذلك لأن خضير كاتب صعب وما يكتبه ليس يسير



فاروق يوسف
كاتب عراقي

لو أنه لم ينتشر سوى كتابه الأول "المملكة السوداء" لاستحق ما ناله من مكانة أدبية. كتاب واحد صنع شهرته غير أنه في ما بعد وقع ضحية لذلك الكتاب الذي اعتبره العراقيون فتحا. كل ما كتبه بعد ذلك سيقتارن بنصوص ذلك الكتاب الساحرة.

ومع ذلك فإن محمد خضير واصل الكتابة والنشر ولم يقع ضحية لكتابه الأول. فبدا ذلك الكتاب كما لو أنه مشكلة الآخرين الذين تعلقوا به واحبوه وليس مشكلة الكاتب الذي لم يجد أنه عليه أن يكتب كتبا على غرار. ولكن ما الذي فعله خضير في المملكة السوداء لكي يستحق كل ذلك الإطراء الذي أحيط به من قبل نقاد الأدب العرب؟

ذلك الفناء الاستثنائي الذي لم ينله كاتب عراقي ظل محصورا في دائرة البحث الأدبي فلم يتقدم بمنجز خضير خطوة واحدة في اتجاه القارئ العربي العادي الذي قد لا يجد في ذلك المنجز ما يتمتع به. فما قام به خضير إنما يعد تحولا فنيا خالصا. الأمر الذي يقف بينه وبين الشهرة الشعبية التي لم ولن يسعى إليها رجل متواضع، عاش حياته بعيدا عن الأضواء والعلاقات العامة مثل خضير.



الرسام الإسباني فرانسيسكو غويا يلاحقه خضير في كتابه «كراسة كانون» منتحلا

شخصية الكاتب الذي ينظر إلى الوقائع والشخصيات باعتبارها رساما

كانت علاقته بمدينته الجنوبية "البصرة" قد تشعبت دروبها وصارت أشبه بالمهاجرة وهو ما شجعه في ما بعد على أن يكتب كتابه "بصريانا" باحثا عن الروائح والأصوات الخفية التي صنعت صورة مملكته التي ظل عالقا بهوائها بالرغم مما لحق بها من خراب.

رجل المعنى وأسير اللغة

ظهر خضير وسط جبل من القصصين، سيكون أفرادهم من أهم الكتاب في تاريخ الحركة الأدبية في العراق. موسى كريدتي، جليل القيسي، جمعة اللامي، منير عبدالأمير، موفق خضر وسواهم. فكان تميزه بمنايا حدث استثنائي وهو البعيد عن الأضواء. يخطئ البعض حين يظن أن فنتة اللغة هي مفتاح ذلك الاستثناء. الصحيح أن لغة خضير هي الباب التي انفتحت على عوالم استثنائية من جهة ما انحطت عليه من قيم إنسانية عميقة في معانيها وقوية في تأثيرها.

لم يكن سحر نصوص خضير في حقيقته لغويا وإن بدا كذلك. كانت قوة المعنى الإنساني هي ولعه باللغة قادر منذ بداياته إلى الاهتمام بالصورة داخل الحكاية. كان أشبه بالرسام الحديث الذي ينظر إلى الأشياء والكائنات من زوايا متعددة في الوقت نفسه. سيعود في ما بعد إلى هوايته القديمة

● علاقة خضير بمدينته "البصرة" تشعب دروبها بل هي أشبه بالمهاجرة. ما شجعه على أن يكتب كتابه "بصريانا" باحثا عن الروائح والأصوات الخفية التي صنعت صورة مملكته التي ظل عالقا بهوائها بالرغم مما لحق بها من خراب.

لما كنت أكتب من نصوص قصصية. يمكننا أن نحكم من خلال هذا الاعتراف على صلة خضير بكتابات وبالضبط في المجال الذي يتعلق بعزوفه عن نشر نصوصه. فالرجل يمارس على نفسه رقابة صارمة. إنه يخط سطرًا مجاورًا لكل سطر يكتبه. انضباطه الذي ظهر في أول

متوقعة. يقول خضير "تستطيع الكتابة أن تحقق نصا تكعيبيا باختزال الحوادث الماضية في لحظة النصور الآتية، لحظة التذكر الشاملة للتفاصيل والأجزاء. تسير الكتابة السردية على سطح بل أعماق ولكنها تشير دائما إلى حفر الصور الموهمة والاسترجاعات المفاجئة والأخيلة المفتوحة".

يشبهه بالرسامين وهو يلاحق الرسام الإسباني "فرانسيسكو غويا" في كتابه "كراسة كانون" منتحلا شخصية الكاتب الذي ينظر إلى الوقائع والشخصيات باعتبارها رساما. سيكون على خضير أن يبني عالما، يرى من جهات مختلفة. وهو عالم تتساق فيه جماليات النظر مع وقائع تتخاطفها الحواس الأخرى. فالحكاية هي ذلك المزيج من الأصوات والروائح والصور وتقع في لحظة التماس مع الواقع الذي صار بالنسبة إلى خضير مرآة لما هو متخيل.

لم يعد هناك بعد واحد للحكاية. لقد برع خضير في اختراع أبعاد مختلفة للحكاية والإسماك بخيوطها وهو يشعر بلذة أن يكون كاتبًا في الوقت الذي يشعر فيه قارئه بنشوة أن يكون قارئًا وهي صفة تنمahn مع الرغبة في الاكتشاف. يضع خضير قارئه في مقدمة السفينة المبحرة في اتجاه المجهول.

سعيًا وراء الخيال

لسنا في حاجة إلى اعتراف خضير بأنه ليس ناقدًا لكي نتأكد من أن الرجل في كل ما فعله كان يسعى للاكتفاء بشخصية الراوي الذي رأى وعرف كل شيء عن عذاب كائناته. يقول عن مقالاته التي ضمها كتابه "الحكاية الجديدة"، "هي محاضرات متناثرة، كانت نتيجة إفرارات جانبية أو مثلما أقول تفاعلات أثناء كتابة القصص ولذلك تجمعت ببطء وعلى شكل مقاطع ومذكرات يومية متفرقة إلى أن صارت بهذه الصورة التي ظهرت في الكتاب.

هي في حقيقتها ليست نصوصًا تقنية، ذلك لأنني لا أمارس النقد وإنما هي تأملات تقنية ومراجعات

من قصة «الأرجوحة»

في الماء بين ظل السعف كنقوش في ثوب مخطط. وفي منطقة فيء غزير فوق دراجته الخفيفة، كالتائم، بين الجدار حتى منتصف الجادة. استند الفتى بقدمه إلى الجدار، بعد أن أوقف حركة الدراجة، وأخذ يلتهم ثمار التوت السوداء. ثم ترحل عن دراجته، وأسندها إلى الجدار، وقطع الجادة منحدرًا ضفة الأشجار الزاحفة ليغسل أصابعه الدبقة في ماء الجدول، ثم شرب وبلل رأسه الحليق، مغترفا الماء برأيته المورتين.

على جادة السكون المظلة بمراوح السعف كان فتى حليق الرأس يتحرك فوق دراجته الخفيفة، كالتائم، بين الجدار حتى منتصف الجادة. تشبه رغوة الصابون إلى اليسار، وجدار واطئ من الطين المنهدم إلى اليمين. تبدأ من حافة الجدول المشعب أرض تبعثرت فيها جذوع النخيل وأغصان السوس والحلفاء المتوحشة، كما كان جدار الطين يحجز أرضًا منخفضة تتجاوز فيها الجداول وتغطيها تماسا الأغصان الدقيقة المزهرة والأشجار البرية وأشجار الرمان وعرائش الكروم المتسلقة على الجذوع. تنغمر الجادة شمس قوية، في حين يحل فيء ساخن فوق أشعاب غاية النخيل وجاداتها الضيقة المحاصرة. وكالتائم، كان الفتى لا يسمع صوتًا حتى لعجلتي دراجته وهما تدوران على غبار الجادة الناعم، ولكنه يشم روائح أزهار الدفلى والأزهار البرية في المنخفض النباتي أسفل جدار الطين وخلف الجدران المزبد. ومن كسرات الجدار كانت تخطف بصره المبهور بأشعة الشمس من خلال السعف

أزهار الرمان الحمراء المختبئة في كثافة ظل الأوراق، وحركة الأجنحة الرمادية لطبور "الفاخته"، غير أن أزهار الدفلى في أغصانها المتدلية في الجدول الواطئ ترتسم



أنصت لأقدام خافته، وظهر ثلاثة كلاب دخلوا من ثقب الجدار للأرض المنخفضة. وثانية حل في رأسه ذلك الغفو المريح حين امتطى دراجته، وتشرب بالسكون ذي الرائحة الساخنة، ومن بين جفنيه راقب بعينيه المغمضتين انفصال أجزاء دراجته على التراب، وكانت العجلتان المعوجتان تتسلقان الجدار وتتعثران في حفره وثقوبه، ثم طفتا في السكون بتوازن، وأصبح الفتى يتحرك على قمم النخيل، منهمكا في غفوه بمراقبة الحيات المتحفزة المختفية في منخفضي الأعشاب: حياة كرات نبات "الخرنوب" اليابسة، حياة أثمار الأعداق غير الناضجة، حياة بويضات أحياء الجداول، ثم الحياة الأكثر غموضا وتحفزا في الحقيبة المعلقة بالمقود.